مناقشة كتاب ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام لينهارت دوزي

محمد مرقة

(رسالة في مناقشة كتاب ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام لرينهارت دوزي)

محمد مرقة

مقدمة:

كتاب (ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام)هو من تأليف المستشرق الهولندي رينهارت دوزي المتوفى سنة 1883م، يبحث فيه عصر ملوك الطوائف في الأندلس في الجزء الأول منه، وفي الجزء الثاني تحدث فيه باقتضاب عن حال العرب قبل الإسلام و بعده، وشيء من تاريخيه .
والمستشرقون عمومًا عندما كتبوا في التاريخ الإسلامي، ادّعوا أنهم حياديون، وأن هدفهم البحث فقط، ولا أضغان في قلوبهم يكنّونها للإسلام وأهله، ولكن عند قراءة كتبهم، تراهم يحشونها بالمعلومات المغلوطة والأكاذيب الملفّقة، ولو أحسنا بهم الظن وقلنا، إن سبب وجود هذه المعلومات المغلوطة والأكاذيب، هو ما يوجد في تاريخنا نحن من روايات عن وضّاعين وكذّابين وأفّاكين، إلّا أن هذا أيضًا لا يعفيهم من الاتهام، لأن المنهج العلمي، يقتضي قراءة جميع الروايات المتعلقة بحادثة ما، ودراسة حال رواتها، ومطابقتها للوقائع والظروف المحيطة بالحادثة التي تتكلم عنها الرواية، إلى غير ذلك من أساليب البحث في صحة الروايات، لا أن ينقل الإنسان ما يصب في مصلحته من روايات تاريخية ويدع ما لا يعجبه، وهذا الكتاب مثال على ذلك في مواضع منه، وسأتناول الكتاب على شكل نقاط في هذه الرسالة المقتضبة، أسوق النص الذي أريد التعليق عليه ثم أناقشه إن لزم الأمر .

أولا : تحدّث دوزي في بداية كتابه عن انحلال الخلافة الأموية في الأندلس، وما نشأ عنها من تشتت وتفرّق، فتحدث عن بداية ملك بني جهور في قرطبة على يد أبي حزم جهور بن محمد بن جهور، بعد خلع الجند لآخر خلفاء بني أمية، وكيف أنه ضبط الأمور وجعل الأمر شورى، ومن ثم تحدّث عن بداية ملك بني عُباد في اشبيلية على يد القاضي أبي القاسم بن عُباد، ومن ثم توسّع ملكهم على يد ابنه الذي سمّى نفسه بالمعتضد وهو عُباد بن إسماعيل، وكيف أنه استغلّ موت الخليفة هشام الثاني وبروز شخصٍ يشبهه جدًا، فدعاه إلى اشبيلية، ومن ثم حجر عليه وصار يحكم بإسمه، ثم ما لبث هشام المزعوم هذا أن مات، فأخفى المعتضد موته وحكم باسمه كذلك سنوات، ثم بدى له أن يظهر موته وأن يخبر الناس بأن الخليفة قبل موته عهد بالأمر له .
ثم في فصل آخر تحدث عن شخصيتين بارزتين لعبتا دورًا هامًا على مسرح الأحداث، وهما الوزير اليهودي ابن نغريلة وزير باديس بن حبوس حاكم غرناطة، وتكلم عن دهائه وذكائه، وكيف استطاع أن يصل لأعلى المراتب في عهد باديس. والثاني هو الوزير ابن عباس وزير أمير ألمرية، فتحدث عن ثرائه الفاحش وبذخه وطيب عيشه الذي انقلب فقرًا وذلًا، لمّا انتصر باديس حاكم غرناطة على جيش سيده زهير حاكم ألمرية .
وتحدث في فصل آخر عن مقتل أبي الفتوح على يد ابن باديس كذلك، وكيف توسّع ملك ابن باديس أكثر فأكثر، ثم في فصل آخر عاد للحديث عن المعتضد حاكم اشبيلية، فاستطرد في الحديث عن حروبه وتوساعته وانتصاراته، ثم تكلم عن ابنه المعتمد بن

عباد، وعن طيب عيشه وسعة ملكه، وكذلك عن علاقة المعتمد بوزيره ابن عمار بالتفصيل، كيف بدأت حياة ابن عمار، وكيف تعرّف على المعتمد أيام كان أميرًا. ثم كيف صار وزيره لما خلف أباه المعتضد، وكيف كان المعتمد لا يطيق فراقه لحظة واحدة . ثم كيف انقلب ابن عمار على سيده وحاول الانفصال عنه والاستيلاء على مرسية، ثم كيف هُزم وصار مشرّدًا في البلاد، ثم كيف ظفر به صديقه القديم المعتمد وقتله شر قتلة.
ثم تحدث عن الاقتتال بين ممالك المسلمين، اشبيلية وغرناطة وطليطلة، وكيف أن أمراءها كانوا يتقاتلون فيما بينهم ويعطون الأتاوة لألفونسو حاكم قشتالة وليون ونافار ، ومن ثم تحدّث عن تحرّك ضمير المعتمد أخيرًا، ورفضه الذل والهوان الذي يفرضه عليهم ألفونسو، إذ قتل رسل ألفونسو لمّا تمادوا في اذلاله، ومن ثم طلب العون من أمير المسلمين في المغرب يوسف بن تاشفين رحمه الله، وكيف أن ابن تاشفين رحمه الله هبّ لنجدة إخوانه في الأندلس، وانتصر على الصليبيين مع الأندلسيين في موقعة الزلّاقة المجيدة الخالدة .
لكنه لم يستطع إخفاء نزعته الصليبية في كثير من الأحيان، فكثيرًا ما كان يصف المرابطين بالبربر الهمجيين، ويدّعي أن يوسف بن تاشفين رحمه الله لمّا رأى الأندلس لأول مرة أضمر في نفسه حب تملكها، وأنه بقي يمثل دور المحب للمعتمد حتى تمكن منه وطره منها وتملكها هو، والواقع غير هذا قطعًا، فابن تاشفين رحمه الله لم يحرّكه إلّا داعي الجهاد، ورفع الظلم والطغيان عن إخوانه في العقيدة، وأدلُّ ما يستدل عليه بهذا، أنه رحمه الله بعد الزلاقة، ترك جميع الغنائم لأهل الأندلس وعاد قافلًا إلى المغرب.
وكذلك ادّعى المؤلف أن ابن تاشفين لم يكن يأبه كثيرًا لقتلى الأندلسيين، وأنه تركهم يتلقون الضربة الأولى ثم تداركهم أخيرًا، وأن ابن تاشفين كذلك كان ينظر إليهم جميعًا على أنهم أعداء إذ يقول في صفحة 142 : " وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلًا : وما يهمني إذا كان نصيب هؤلاء جميعًا الهلاك، إنهم جميعًا أعداء " ، ولا أدري من أين أتى بهذا !! .

ثانيا : في الجزء الثاني من الكتاب تحدث المؤلف عن حال العرب قبل الإسلام، وعن عبادتهم للأصنام وعقيدتهم في الجن والبعث، وتحدث عن المسيحية واليهودية والحنفاء في الجزيرة العربية قبل الإسلام، كل هذا باختصار .
ثم تكلم عن حال المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف اتفقوا على أبي بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين، لكنه جعل حادثة سقيفة بني ساعدة مسرحًا للطعن في الصحابة، فهو يصوّر الصحابة من مهاجرين وأنصار متسابقين للخلافة متعطشين لسلطة، ويكنّون لبعضهم البعض الكره والحسد، وأن الاقتتال كاد يحدث بينهم، إذ يقول في صفحة 263 : " وحمي وطيس الكلام، وكاد ينقلب إلى خصومة " ويقول كذلك : "أراد حباب الخزرجي أن يناوئ الدعوة، فصرخ مهددًا بالحرب، واستل سيفه، فانتزعه عمر من يده " ولا أدري من أين أتى بهذا، فحباب بن المنذر رضي الله عنه قال في المناقشة التي كانت بين المهاجرين والأنصار:"منّا أمير ومنكم أمير" ليس إلّا، و تشاور المسلمين أصلًا في سقيفة بني ساعدة، لم يعدو إلا مناقشة بين الإخوة، ويدل على ذلك

قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر :" يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الأَنْصَارِ".وكما هو معلوم أدت هذه المحاورة في النهاية لاعتراف الجميع بأحقية أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة لأنه خيرهم .
ويقول المؤلف كذلك : " ورأى سعد – يقصد سعد بن عبادة – آماله في الخلافة تتبدد هباء .....إلى أن يقول .. فإن عمر نفسه لم يتورع عن إهانته، ووصفه بأقبح النعوت على الرغم من أنه خصم أعزٌّ جليل القدر، وقد تداركه أبو بكر فصدَّ هذه الجموع عنه، وأنقذه من أذاهم وشرهم " ، ولو قرأنا حديث السقيفة بالأسانيد الصحيحة لما وجدنا هذا ، فمن أين أتي بأن عمر قد أهان سعدًا ووصفه بأقبح النعوت، ثم إن سعد بن عبادة رضي الله عنه بايع أبا بكر آخرًا كما بايع الناس، وليس سعد بن عبادة من يُجبر على شيء ويسكت على إهانة، وهو رضي الله عنه كان مقرًا كما كان كل المسلمين مقرّين أن أبا بكر خيرهم جميعا .

ثالثًا : بعد عرضه لأحداث سقيفة بني ساعدة واجتماع المسلمين على أبي بكر، ذكر أمر ردة العرب وكيف استطاع أبو بكر رضي الله عنه برجاحة عقله وحزمه التصدي لها، والحق يُقال أن المؤلف لم يستطع إخفاء إعجابه بأبي بكر رضي الله عنه، لكنه في معرض حديثه عن حروب الردة قال في الصفحة 266 : " وقد اقترف العرب من الفظائع في هذه الحرب – حرب الردة – شُنَعًا لم يعرفها الإسلام قط، فكانوا إذا انهزم العدو تعقّبوهم ونكلوا به، لأن الردة جزاؤها القتل، لا هوادة في ذلك ولا رحمه، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله : عليك بإبادة الكفرة بالحديد والنار، ولا تأخذنك فيهم رحمة قط " ، وكأننا به يصور حال المرتدين بحركة من حركات المعارضة كما في عصورنا المتأخرة، حاولت الانقلاب بقوة السيف لكن باءت بالفشل، والحق أن هذا التصور مغلوط ، فجزيرة العرب كلها ارتدت قاطبة إلا أهل المدينة ومكة والطائف والقليل من القبائل، فهم بالتالي أقلية والمرتدون أكثرية، وبدل لمزه هذا، كان أجدر به أن يفصح عن إعجابه في تمكن أبي بكر رضي الله عنه وخلفه المسلمين من إخماد هذه الفتنة العظيمة التي كادت تذهب الإسلام كله، وكيف استطاعوا بعدادهم القليلة مجابهة هذا السيل العرم من الردة .

رابعًا : بعد حديثه عن انتصار المسلمين في حروب الردة، أورد مقالة مغرقة في عدم الإنصاف والتحامل في الصفحة ذاتها إذ يقول : " ولم يكد يتم انتصار أبي بكر، حتى وجّه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء، إلى مهاجمة فارس والأمبراطورية الرومانية ..." ويتابع قائلا : " و إنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي التي كان يتبعها، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم، ولا يدع لهم وقتًا كافيًا لذلك، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية، وما يجره ذلك من غنائم " ، فهنا هو يدّعي أن فتوحات المسلمين بمعنى أو بآخر، هدفها الغنائم لا أكثر، وأن أبا بكر كان يعرف هذه الجزئية تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فشغل المسلمين بحبهم المال عن التفكير في خضوعهم على حد تعبيره، وأي إنسان قرأ تاريخ

فتوحات المسلمين يعلم أن هذا محض افتراء وتلفيق، إذ أنه كان من الأجدر به أن يتسائل عن سبب مغامرة قوم لا يملكون إلّا أسلحة بدائية مقارنة بما كان يملكه الفرس والروم، ثم أي دافع يقنع إنسانًا بالخروج في أعداد قليلة لمقارعة جيوش نظامية تعدادها آلاف مؤلفة، وبالتالي ففرصة النجاة فيها تكاد تكون شبه مستحيلة، حتى وإن كان الدافع المال والغنائم.

خامسًا : يدّعي المؤلف أن الإسلام لم يتمكن من قلوب المسلمين بعد عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن عدد كبيرًا منهم يستغلون أي فرصة للتمرد والثورة على تعاليم الإسلام، ويستدل على هذا بحادثة مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه فيقول في صفحة 268 : " وقد بدأ ذلك بحادث عثمان – ثالث الخلفاء – حين تولى الخلافة بعد وفاة عمر 644 م وكانت سن عثمان حينئذ سبعين عامًا ، وكان حليمًا ليّن العريكة، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسُراتها ورجال بني أمية، أي أنه كان ضعيف الإرادة أمام من ناصبوا محمدًا العداء عشرين عامًا، ثم أسلموا، فكان في إسلامهم مجالٌ واسعٌ للظنون والحذر، ولقد نالوا بفضل عثمان أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل خليفتهم الشيخ المسن عثمان " .
وهو في كلامه الذي استقاه بالطبع من مرويات الكذّابين والوضّاعين يتهم عثمان رضي الله عنه بالعجز والخور وقلة الحيلة، ويشكك كذلك في كلامه هذا في إسلام أعيان مكة ورجالات بني أمية، ويتهمهم باستغلال عثمان لأغراضهم الشخصية وعدائهم الباطن للإسلام، وهذا السياق يحلو للمستشرقين عمومًا في تفسير حادثة مقتل عثمان رضي الله عنه، إذ ينتقون ما يوافق هذه السردية من روايات ويدعون ما لا يوافقها، ليصوّرا الأمر ثورة على ضغيان عثمان وبني أمية، وهذه الفرية التي تقول أن عثمان رضي الله عنه حابى بني أمية على حساب الدين، وأنه أطلق أيديهم في الدولة دون حساب أو عقاب، وأنه ولّى جميع الأقاليم الإسلامية لرجال من بني عمومته، كله لا يصح لا تاريخيا ولا علميًا، فمثًلا، ادعاؤه أن عثمان رضي الله عنه جعل الأمصار كلها في يد أمراء من بني أمية لا يصح، ولو رجع أي قارئ إلى تلك الحقبة وتصفح أسماء الولاة والأمراء، لعلم أن عثمان ولّى فقط خمسة من بني أمية من أصل أزيد من عشرين واليًا، وأن هؤلاء الخمسة لم يكونوا جميعهم ولاة في وقت واحد، ثم إن بني أمية منهم مئات الصحابة، منهم من هو قديم الإسلام، ومنهم من شهد كل المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من أوذي من قبل المشركين أذى شديدًا، ومنهم من سارت بسيرته الركبان في زهده وتقلله من الدنيا، فشملهم جميعًا –أعني بني أمية- بكل وصف قبيح، مجازفة كبيرة حتى وإن كانت من مستشرق، قد يعذره بعضهم بما يوجد من روايات ضعيفة ومكذوبة .

سادسًا : يتابع المؤلف مستدلًا بالاقتتال الذي كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما على أن جمهرة كبيرة من المسلمين، كانت تناوئ الحق وتكره تعاليم الإسلام، فيقول

في نفس الصفحة : " ثم ولي الخلافة بعده علي ابن عم محمد، ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبت سوريا متحمسةً إلى امتشاق الحسام وعلى رأسها واليها معاوية بن أبي سفيان، وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقًا لم يخضعوا لهم " .
واتهام أهل الشام وعلى رأسهم معاوية رضي الله عنه بأنهم معادون للإسلام ويناوئونه من صميم قلوبهم، مجازفة أكبر من التي كانت في كلامه السابق، فهو بهذا يتهم الآلاف من الناس بالمروق من الدين فقط بسبب الاقتتال الذي كان بين جيش علي وجيش معاوية دون بينة أخرى أو دليل، وقد فاضت المكتبة الإسلامية بمئات المؤلفات التي تثبت أن الأمر برمته، ما كان إلّا خلافًا بين المؤمنين، علي رضي الله عنه ومن معه من جهه يرون أن الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان في هذا الوقت متعذر، وأن الأولى لم الشمل وتوحيد الصف، ومعاوية ومن معه من أهل الشام من جهة أخرى، يرون أن مقتل رجل بحجم عثمان رضي الله عنه ثم هو أمير المؤمنين لا يمكن بحال أن يتجاوز عنه مرحليًا، وأن تأجيل معاقبة قاتليه والاقتصاص منهم مجانب للصواب، لذا كان لا مفر من الاقتتال.

سابعًا :في حديثه عن الفتن التي عصفت بالمسلمين أيام خلافة يزيد بن معاوية وما كان في وقعة الحرة، ومن ثم الاقتتال بين جيش عبد الملك بن مروان بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي وبين عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن معه المتحصنين في مكة يقول في صفحة 273: " وهكذا لم تهدأ هذه الفئة المناوئة للإسلام ولم تثلج صدورهم، إلا بعد أن تمت لهم الغلبة على أنصار هذا الدين وظفروا بتقويض معالمه وإذلال أهل المدينتين المقدستين وتحويل مسجد المدينة إصطبلًا لخيلهم وإحراق الكعبة، وتحقير سلالة المجاهدين الأولين الذي عزّ بهم الإسلام وانتصر، وقد عرفت تلك الأقلية العربية – التي اضطرت إلى الإسلام اضطرارًا وأُكرهت على الدخول في هذا الدين إكراهًا – كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضتهم ثمن الفوز مضاعفًا وشفت غلة صدورها المكلومة " .

هكذا بكل بساطة، يحكم على الأمويين عمومًا ومن ناصرهم بأنهم كفرة، ولم تهدا نفوسهم إلا بعد أن انتقموا من الإسلام وأهله، مستشهدًا على ذلك بوقعة الحرة وحصار الكعبة وقتل ابن الزبير، والغريب أنه لم يكلف نفسه جهدا في البحث عن أسباب هذه الفتنة وعن تفاصيلها كاملة، وما صحَّ منها وما هو مكذوب، إنما نرى من حاله أنه لما وجد حادثة كهذه في بطون الكتب التاريخية مجملة، استغلها ليظهر أن الإسلام لم يتكمن من صدور كل متبعيه، وأن فئة كبيرة من المسلمين تصل إلى النصف لم تكن تؤمن بتعاليم الإسلام!، وهذا أبعد شيء في المجازفة .

ثامنًا : يقول المؤلف في صفحة 273 : " ولم يكن عهد الأمويين إلاّ عهدًا تتمثّلُ فيه الرجعية والانتصار للوثنية، وكان خلفاء بني أمية أنفسهم – إلا القليل النادر منهم – لا يُعنَونَ بنُصرة هذا الدين ولا يخلصون له " .

كلامه هذا يؤكد ما قاله المؤرخون المنصفون من أن أكثر دولةٍ من دُول الإسلام تعرّضت للتشويه والطعن هي الدولة الأموية، لأن عهدها كان عهد عزّةٍ ونصرةٍ للإسلام وأهله بعد عصر الخلافة الراشدة، وكان عهدها عهد فتوحات وتوسعات وانتصارات، وكانت دولة الإسلام في عهدهم، تمتد من الصين غربًا حتى الأندلس شرقًا، واستغراق المؤلف في المجازفة، جعله يهمل حتى ذكر عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي لا تشوب سيرته شائبة حتى عند المستشرقين!.

تاسعًا: كثيرًا ما يدندن المؤلف حول نقطة دخول النصارى والفرس للإسلام فرارًا من دفع الجزية فيقول في صفحة 278 : " لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هذه النتيجة – وهي انتشار الإسلام بشكل واسع -، وقد ألمعنا آنفًا إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا، لأن إعفاءهم من الجزية على اعتدالها كان مما يرغّبهم في الإسلام " .

ولو نظرنا إلى قيمة الجزية التي كانت تؤخذ منهم لوجدناها قليلة جدًا، مقارنةً بما يترتب على المسلم من مطالبات مالية شرعية، فالذميُّ بمجرد دفعه لجزيته لا يترتب عليه أي متطلبٍ مالي آخر، بل إن عجز المسلمون عن حمايتهم ردّوا عليهم جزيتهم، بينما المسلم فرض الله عليه الزكاة في ماله وزروعه وعقاره، ناهيك عن حثّه على الصدقات بكافة أنواعها، فلا وجه للمقارنة بينهما، فكيف تكون الجزية ثقلًا على كاهل الذمي يزيحه عنه بادّعاء الإسلام، وهو إذا أسلم زادت عليه هذه الأعباء المالية؟! .

إلا أنه لا لم يجد بدًا بعد صفحات، من الإقرار بما لا بد من الإقرار به فيقول : " ولو أننا عزونا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية أو الرغبة في التخلص من الذل والضعة ، فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيرًا من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان " .